

السياسة الاستعمارية الفرنسية وأثرها على حركة الهجرة المتبادلة بين تونس وليبيا

(1881-1915)

**French colonial policy and its impact on the movement of
mutual migration between Tunisia and Libya (1881-1915)**

كلية الآداب والعلوم الإنسانية سوسة - تونس	Karimakhelifi91@gmail.com	كريمة خليفي
--	---------------------------	-------------

2024/03/17

القبول/

الإرسال: 2023/06/06

الملخص

يهدف هذا البحث إلى دراسة سياسة فرنسا تجاه الهجرة المتبادلة بين تونس وليبيا خلال الفترة الممتدة من 1881 إلى سنة 1915، وأثر هذه السياسة على المهاجرين. وهي فترة عرفت فيها المنطقة أحداثا سياسية هامة (الإحتلال الفرنسي لتونس 1881 – الإحتلال الإيطالي لليبيا 1911 – إندلاع الحرب العالمية الأولى 1914). ورغم التقلبات السياسية توجد جملة من العوامل القوية التي تشد الشعبين إلى بعضهما البعض عبر مختلف عصور التاريخ، وهذه العوامل نسجت خيوطها الهجرة المتبادلة والمصالح المشتركة. وقد تجلت الصورة بمزيد من الوضوح خلال فترة الإستعمار الأجنبي، الأمر الذي جعل حركية السكان تشهد نسقا تصاعديا من الجانبين.

وقد تم التركيز في هذا الموضوع على دراسة طبيعة الأساليب التي إعتدتها فرنسا تجاه المهاجرين؛ هل كانت أساليب قمعية أم أنها تساهلت معهم أم كانت تراوح بين هذا وذاك حسب ما تقتضيه مصالحها الخاصة، والعوامل التي كانت تتحكم في تغير هذه السياسة من فترة إلى أخرى، ثم هل السياسة المعتمدة كان لها أثرها في عملية توطين المهاجرين ؟

الكلمات المفتاح

الهجرة – فرنسا – الاستعمار – التوطين – تونس – ليبيا.

Summary

This research aims to study France's policy towards mutual migration between Tunisia and Libya during the period from 1881 to 1915, and the policy's impact on migrants. This is a period when the region has known important political events (French occupation of Tunisia 1881, Italian occupation of Libya, world war I 1914). Despite political uncertainties, there are many factors that tighten the two peoples together the most important is mutual migration.

The picture was clearly reflected during the period of foreign colonialism, the population's mobility has seen an upward trend on both sides. The focus on this topic was on studying the nature of France's methods approach to migrants; were they oppressive methods or did they tolerate them? They are treated in accordance with their own interests, has this policy had an impact on the resettlement of migrants?

Key words

Migration, France, Colonisation, Répartition, Tunisia, Libya.

مقدمة

إن دراسة ظاهرة الهجرة المتبادلة بين تونس وليبيا زمن الإستعمار الفرنسي تحتاج بالضرورة إلى العودة للتذكير بعمق وعراقة العلاقات بين البلدين عبر التاريخ، وخاصة في فترات التقلبات السياسية. ويعود التركيز على دراسة الفعل الاستعماري في علاقة بالهجرة لما له من دور في تعزيز أواصر القرى وتدعيم علاقات الجوار. حيث أصبحت الهجرة القسرية المكثفة تشكل حدثا بارزا في الفترة الإستعمارية، فمثلما كانت ليبيا ملجئ للمهاجرين التونسيين سنة 1881 على إثر الإستعمار الفرنسي كانت تونس أيضا ملجئ لآلاف المهاجرين الليبيين خلال الغزو الإيطالي 1911.

وقد جاءت دراسة موضوع السياسة الاستعمارية الفرنسية ومخلفاتها في إطار إجلاء الغموض على مخطط فرنسا تجاه المهاجرين والأسلوب الذي إعتمدته، لتتمكن من الإحاطة بهذه الظاهرة من جميع الجوانب وفرض مراقبتها الدائمة، مستغلة في ذلك ضعف إراداتهم وبؤس أوضاعهم.

تعد الدراسات التي إهتمت بظاهرة الهجرة المتبادلة بين تونس وليبيا شحيحة ونادرة، فمجملة كانت مركزة على تاريخية الهجرة بين البلدين ودوافعها سواء كانت سياسية أو إقتصادية أو إجتماعية، والأمثلة عديدة. ومن أشهر الباحثين المعاصرين الذين إهتموا بهجرة الليبيين إلى تونس هو الباحث أبو قاسم أحمد إبراهيم. وتناولت أيضا بعض الدراسات أوضاع المهاجرين وإحصائيات توزيعهم، مثل كتاب عبد الكريم الماجري، "هجرة الجزائريين و الطرابلسية والمغاربة والجوانة إلى تونس 1831-1937"، وأيضاً كتاب أندراي مارتال "Les confins saharo- Tripolitains". إلا أن موضوع السياسة الفرنسية ومؤثراتها على ظاهرة الهجرة لم يحظي إلا ببعض الإشارات في فصول هذه الدراسات .

وبالعودة إلى بعض البحوث التي تناولت دراسة تاريخ ليبيا وتونس زمن الاستعمار الأجنبي بطرفيه الفرنسي والإيطالي، وكذلك بعض الوثائق من أرشيف المركز الليبي للمحفوظات والدراسات التاريخية والأرشيف التونسي، تم إقتراح موضوع " السياسة الاستعمارية الفرنسية وأثرها على حركة الهجرة المتبادلة بين تونس وليبيا (1881-1915)" كمحاولة لتكون دراسة تتطرق لمثل هذه الجوانب في بحث شامل من أجل إجلاء الغموض على عديد الإشكاليات التي سبق وتم طرحها وفتح آفاق البحث للتوسع أكثر.

I. دوافع الهجرة المتبادلة بين تونس وليبيا

1. الخلفيات التاريخية للهجرة المتبادلة بين البلدين

إن الهجرة ظاهرة إجتماعية عرفت البشرية منذ ظهور الإنسان الأول في عصور ما قبل التاريخ، وكان لها ارتباطا مباشرا بعلم السكان (الديمغرافيا). يعرفها "دافيد سيللي" بأنها حركة إنتقال الأشخاص عبر مسافة طويلة إلى غير موطنهم الذي نشأوا فيه⁽¹⁾. تنقسم الهجرة إلى قسمين: الهجرة الداخلية التي تتم داخل القطر الواحد (Migration interne)، والهجرة الخارجية هي إنتقال الأفراد من قطر إلى آخر. (Migration externe) وهناك هجرة إختيارية تتم وفق إختيار المهاجر، وأما الهجرة القسرية (Migration forcée) أو الإلزامية تتم نتيجة ضغوطات عوامل متنوعة⁽²⁾.

وقد أكدت الهجرة بين تونس وليبيا على أهمية الترابط التاريخي بين البلدين وتحذر أواصر ألقري، حيث ظلت الداعم القوي الذي يشد الشعبين إلى بعضهما رغم التقلبات السياسية في بعض الفترات التاريخية. و كانت أغلب العوامل المتاحة عبر التاريخ مساعدة على تشكل ظاهرة الهجرة وتواصلها، فمن الناحية السياسية إرتبط إقليم طرابلس الغرب منذ العصور الإسلامية الأولى بولاية إفريقية وعاصمتها القيروان، وبداية من القرن الثالث عشر ميلادي أصبح هذا الإقليم تابعا للدولة الحفصية، ثم خضع كلا المجالين (طرابلس – تونس) فما بعد إلى الدولة العثمانية، حيث تواصلت تبعية تونس إلى حدود 1881 ولو بشكل صوري، أما إيالة طرابلس كانت تبعيةها إلى حدود 1912⁽³⁾.

وتشير البحوث التاريخية التي إهتمت بدراسة القبائل والأنساب أن أغلب القبائل العربية التي عمرت إقليم طرابلس والبلاد التونسية ذات أصول مشتركة، إذ توافد على تونس وليبيا المهاجرون العرب من بني هلال وبني سليم بداية من منتصف القرن الحادي واستقروا بها، وكانت (دباب) من بني سليم قد نزلت في المنطقة الممتدة بين قابس وطرابلس⁽⁴⁾. وقد برز التقارب بشكل كبير في العهد العثماني و أصبحت الإيالتان امتدادا لبعضهما وفي عهد درغوث باشا⁽⁵⁾.

ويعود الفضل في حسن العلاقة وتواصلها إلى أهمية الحركة التجارية التي نشطت في بداية القرن الثامن عشر والتي ساهمت في تدعيم الهجرة المتبادلة بين الإيالتين، حيث إزدهرت بفضل القوافل التجارية الغدامسية القادمة إلى تونس بالبضاعة الإفريقية وتنقل في المقابل السلع التونسية، ونتج عن هذه الحركة إقامة عدد من العائلات والتجار الغدامسية في تونس و إمتلكوا الأراضي والزيتون وكانت

¹ - David- Silis, Migration, The International Encyclopedia of the social sciences, vol 9, London 1981, p281.

² - ألديدي (محمد)، مدخل لجغرافية السكان، منشورات المعهد الأعلى للتربية والتكوين المستمر، دار سراس، ط2، تونس، نوفمبر 1994، ص 159

³ - الماجري (عبد الكريم)، هجرة الجزائريين و الطرابلسية والمغاربة والجوانة إلى تونس 1831-1937، دراسة تاريخية لإشكالية الاستعمار والهجرة وتشكل الجاليات المغربية بتونس وخصوصياتها الاجتماعية والقانونية، تونس 2010، ص 151.

⁴ - الزايد (محمد رجب)، قبائل العرب في ليبيا، دار الكتاب العربي، طرابلس 1968، ج 1، ص 67.

⁵ - درغوث باشا، هو أحد ولاة طرابلس الغرب، تولى أمر هذه الإيالة سنة 1553 في عهد السلطان سليمان القانوني وقد شارك مع سنان باشا في مهاجمة طرابلس و تخليصها من فرسان مالطة سنة 1551 وهو تاريخ بداية العهد الأول في ليبيا.

لهم وكالة تجارية دائمة بالعاصمة، فقد كانوا يمارسون تجارة الحبوب والزيتون وكانت نقطة التجمع التجاري لتجار غدامس وتونس منطقة قابس ومنها تنقل البضاعة إلى غات.⁽¹⁾

تواجد أيضا التجار التونسيين بطرابلس و بمدينة بنغازي و كانت لهم الأملاك متمثلة في المنازل والسواني(الحقول) فضلا على إمتلاك البعض منهم حوانيت في الأسواق الرئيسية كسوق الرباع ، ويذكر أنه كان لهم رواق خاص بهم بهذا السوق . ومثلت فئة التجار التونسيون أكثر التجار العرب العاملين بطرابلس إذ ينتمي معظم هؤلاء التجار إلى جزيرة جربة، ويبدو أنهم كانوا جماعة متميزة وحسب ما تذكر المصادر أنه كان يطلق عليهم " الجرابية"، علاوة على وجود عدد من التجار من مدن تونسية أخرى مثل (صفاقس والمهدية وتونس وباجة)⁽²⁾. وقد كان الفضل لهؤلاء التجار تدعيم علاقة التواصل المستمر بين البلدين .

تكثفت الهجرة بين البلدين زمن التوترات السياسية التي أفرزها الحكم المحلي، فمن جانب طرابلس تزايدت الهجرة في اتجاه تونس نتاج فساد الحكم القراه منلي، ونتيجة للأوضاع المزرية التي آلت إليها البلاد خاصة في أواخر حكم يوسف باشا والتي ألحقت أضرارا فادحة بالسكان. تتالت موجة من حركات التمرد و إندلعت العديد من الثورات في أجزاء كبيرة من الإيالة، وكانت أشهرها ثورة غومة المحمودي سنة 1835، تهدف في مجملها إلى التخلص من حكم هذه الأسرة .

ونتيجة لهذه الظروف الصعبة اضطرت بعض القبائل إلى الهجرة للبلاد التونسية، ويذكر هنا روسي أن الهجرة كانت وسيلة للأهالي لتأمين معيشتهم⁽³⁾، وما شجع الأهالي على التوجه نحو تونس هو عدم وجود موانع تحد من تنقل السكان بالإضافة إلى الاستقرار السياسي الذي كانت عليه البلاد التونسية، حيث كانت تتمتع بشبه إستقلالية عن الباب العالي خاصة في عهد الدولة الحسينية . إلا أن هذا ولا يخفي وجود بعض الأزمات التي تعرض إليها التونسيون، نذكر مثلا تلك الفوضى التي عمت البلاد وأصبحت تهدد أمن السكان خلال أحداث إنتفاضة 1864⁽⁴⁾ ما اضطّر بعضهم إلى الهجرة لطرابلس . وقد ذكر شارل فيرو في الحوليات الليبية أنه " ترددت أحداث مدينة تونس في جزيرة التي فر من كان بها من الماطيين واليهود حيث إلّجأوا إلى مدينة طرابلس بعد أن تعرض لهم بادية الحدود ،خصوصا قبيلة ورغمة التونسية وسلبوهم⁽⁵⁾).

نستنتج من خلال هذا العرض المختصر لأهم الأحداث التاريخية التي دعمت أكثر ظاهرة الهجرة المتبادلة بين تونس وليبيا، أنه كان لهذه الظاهرة الفضل في تدعيم علاقة التواصل بين الشعبين. فهل سيتواصل نسق الهجرة على نفس الوتيرة أم سيكون للاستعمار رأي آخر ؟.

1-Andé- Martel ,Les confins saharo- Tripolitains de la Tunis(1881-1911), Paris,1965,p93-94.

2 - شرف الدين (إنعام)، مدخل إلى تاريخ طرابلس الاجتماعي والاقتصادي، دراسة في المؤسسات المدنية التجارية 1835-1711، منشورات مركز جهاد الليبي للدراسات التاريخية، ط1-طرابلس 1998، ص144.

3 - روسي (أتوري) ، ليبيا منذ الفتح العربي حتى 1911، تعريب خليفة تليسي ، دار الثقافة بيروت 1974، ص367.

4 - إنتفاضة 1864، أو إنتفاضة علي بن غدامه نسبة لقائدها علي بن غدامه، كان السبب المباشر لاندلاعها هو مضاعفة الدولة لضريبة الإعانة من 36ريالا إلى 72ريالا تونسيا .إمتدت الثورة لتشمل عدة مناطق من البلاد التونسية ودامت عدة أشهر إلا أنه تم القضاء عليها و إعتقال علي بن غدامه فيفري 1866 ومات بسجن حلق الواد في 10 أكتوبر 1867. أنظر كتاب جون فانياج، ثورة علي بن غدامه 1864.

5 - شارل فيرو، الحوليات الليبية ، تعريب محمد عبد الكريم الوافي، المنشأة العامة للنشر والتوزيع طرابلس، 1975، ص498.

2. الاضطهاد السياسي زمن الاستعمار الأجنبي

أحدث الاستعمار الأجنبي ضغوطا كبيرة على الشعوب المستعمرة من خلال سياسة القمع والإخضاع ومصادرة الأملاك، ما بعث في نفوس المواطنين السخط على هذه السياسة، الأمر الذي دفع بالعديد من القبائل مغادرة موطنهم الأصلي والهجرة نحو الأقطار المجاورة بحثا عن الأمان وعن مورد رزق جديد.

بعد فشل المقاومة التونسية في التصدي للاستعمار الفرنسي (1881)، اشتدت الأوضاع وأصبحت المدن التونسية تسقط في يد المحتل المدينة تلوى الأخرى. ولكن لم ينقطع أمل المقاومين فبعد كل إنسحاب تصبح المواقف أكثر تصلبا خصوصا وأنهم على يقين كبير بمساعدة طرابلس وبأن الدولة العثمانية لن تخذلهم. فقد إجتمع نواب مختلف القبائل التي أكد لها علي بن خليفة⁽¹⁾ مساعدة القوات التركية بين يومي 15 و 20 جوان 1881 في الجامع الأعظم بالقيروان ووجهوا ثلاثة مبعوثين إلى باشا طرابلس طالبين منه توضيح نواياه⁽²⁾.

ومن هنا توجهت الأنظار نحو طرابلس بعد إنعقاد ميعاد الحامة في حدود منتصف شهر أكتوبر، وتم فيه الإتفاق على عبور المقاومين إلى طرابلس ومعهم بعض اتباعهم من القبائل (نفات الجلاص أولاد سعيد). إتبعت المجموعة الأولى بقيادة علي بن خليفة طريق الأعراض عبر مدنين، فما يعبر الآخرون هضبة الظاهر وبئر زميط وبئر سلطان، و يجتمع الفريقان بعد فوق منطقة "المقطع"³ أين سيلتحق بهما الهمامة بقيادة أحمد بن يوسف⁽⁴⁾.

كان أمل المقاومين التونسيين كبيرا في الحصول على الدعم من الدولة العثمانية خصوصا بعد ما تلقوا رسائل طمأنة من طرابلس تعلن عن وصول قريب للقوات التركية، وكذلك ما حضي به قادة الانتفاضة الصفاقسية في القسطنطينية من حفاوة تشريفات، علاوة على التعزيزات والاستعراضات العسكرية التي وجهتها الدولة العثمانية إلى طرابلس. كانت كل هذه الأمور توحى باهتمام الباب العالي فهل فعلا ستتلقى المقاومة التونسية الدعم من الباب العالي؟

اختلفت المصادر في تقدير عدد المهاجرين التونسيين حيث أكد فيرو⁽⁵⁾ أن عدد المهاجرين لا يتعدى 60000 ولكنه لا يذكر داخل أي حدود متواجدين، أما العثمانيون فقد قدروا العدد ب 25000 مهاجر وتحدث أندراي مارتال (André Martel) عن عدد الذين لجأوا إلى ما وراء واد فيسي قد تراوح بين 120000 و 140000 فرد أي عشر سكان الإيالة وكان من بينهم 20000 مقاتل محتمل. وأرجع مارتال هذا التفاوت في تقدير الأعداد إلى أن السلطة العسكرية الفرنسية لم تتمكن بعد من تسخير

1 - علي بن خليفة (1807-1884)، أحد أبطال المقاومة التونسية ضد الحماية من عرش نفات، أعلن الثورة ضد الباي والحماية، توفي بمنطقة يفرن بطرابلس، وهو يبلغ من العمر 82 عاما، ودفن بالزاوية الغربية في كنف الاحترام الذي تستحقه شجاعته وصموده ووطنيته التي لا يقدح فيها أحد. وبوفاته اختفت أكبر شخصية من شخصيات المقاومة التونسية (أحمد القصاب تاريخ تونس المعاصر، ص 47).

2 - André- Martel, les confins saharo- Tripolitains...op cit p 232.

3 - "المقطع" منطقة حدودية بجهة الأعراض.

4 - André, Martel, les confins saharo- Tripolitains...Op cita p 258

5 - فصل عام فرنسي بطرابلس، تم تعيينه في أكتوبر 1881

الإمكانيات اللازمة لعملية إحصاء المغادرين نظرا لأنها عرفت البلاد منذ وقت قصير، وأن الإدارة التونسية وحتى الأتراك أنفسهم لم تكن لهم المعلومات الصحيحة حول عدد التونسيين الذين لجأوا إلى طرابلس⁽¹⁾.

وحتى إن إختلفت التقديرات في العدد فإنه يعتبر مرتفعا وهذا دليل قاطع على صعوبة وضعيتهم ووحشية الاستعمار الذي دفعهم إلى الهروب بحثا عن الأمان والتفكير في شد الصفوف وتنظيم المقاومة من داخل طرابلس. فهل سينجح قادة المقاومة التونسية من إعلان المقاومة من داخل التراب الليبي و ماهي ردة فعل السلطات الفرنسية نحو المهاجرين التونسيين ؟

بعد إن خضعت تونس للإحتلال الفرنسي 1881 وضمت إنقلازا مصر سنة، 1882 أصبحت إيطاليا تبحث عن نصيب لها في المناطق التي لم تستعمر بعد. ووجهت أنظارها إلى الحلقة الأخيرة في شمال إفريقيا، وأصبح أمامها إلا الحل المتمثل في إحتلال طرابلس الغرب لتكون لها مكانة في حوض المتوسط . وقد عبر "موسوليني"⁽²⁾ عن هذا الهدف قائلا "يعتبر البحر المتوسط بالنسبة للآخرين ممرا أما بالنسبة لنا فهي الحياة نفسها"⁽³⁾، وفي الأخير حققت هدفها الإستعماري بغزو طرابلس الغرب وضمها إلى ممتلكاتها الترابية في 5 نوفمبر 1911.

إرتكب الايطاليون أثناء حملتهم جرائم كبيرة في حق السكان من إعدام و إغتصاب و إعتداء على المقدسات. وقد تناقلت الصحف العربية والأجنبية هذه الأخبار وعبرت عن إستياءها من وحشية الإيطاليين، يقول الصحفي الفرنسي "جورج رمون" " أن الجنود والضباط أمنعوا في إنتهاك وإغتصاب المتزوجات منهم كما الفتيات، دون مراعاة للأخلاق. ولقد بلغ ذلك حدودا كبيرة، الشيء الذي أدى إلى "رحيل نساء الأتراك عن ليبيا"⁽⁴⁾. طالت أيضا الممارسات الشنيعة للإيطاليين المقدسات مثل الزوايا و المساجد التي احتسوا في جوفها الخمر وداسوا على المصاحف .

وأمام احتداد الصراع وتمادي القوات الإيطالية في التكنيل بالسكان، إستفحلت أيضا الأزمة الاقتصادية. فماهي مظاهرها وتأثيراتها على وضعية الطرابلسيين؟

3. العوامل الاقتصادية و الإجتماعية ودورها في تدعيم ظاهرة الهجرة .

إستفحلت الأزمة الاقتصادية والاجتماعية في تونس قبل دخول الإستعمار وذلك منذ إحداث الكمسيون المالي سنة 1869، الذي درج البلاد التونسية تحت سقف المديونية وحينها أثقل كاهل السكان بالضرائب . وقد زاد الإستعمار الفرنسي في تعميق الهوة بفضل سياسة الاستحواذ على الأراضي الخصبة والضبيعات الشاسعة لفائدة المعمرين الفرنسيين، فوجد الفلاحون التونسيون أنفسهم محاطون من كل جهة بملكيات المعمرين فاستحال عليهم تربية المواشي واستغلال أراضيهم كما في السابق وبذلك إنقطع مورد رزق العديد منهم .

¹ - André- Martel, les confins saharo- Tripolitains...Op cit p 305

² موسوليني (1883-1945)، مؤسس الفاشية وزعيم إيطاليا من 1922-1943. أنظر كتاب "موسوليني" لجوسيبي دي لونا.

³ - الحرير(ادريس صالح)، الاستعمار الاستيطاني في ليبيا 1911-1970، ط 1، منشورات جامعة الفاتح، مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الايطالي، ليبيا 1984،

ص 11.

⁴ - رمون (جورج)، من داخل معسكرات الجهاد في ليبيا 1912، ت محمد عبد الكريم الوافي، ط2، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، طرابلس، ليبيا 1983، ص 143.

تضررت أيضا القبائل الرحل من نزع ملكية الأراضي، حيث حجر عليهم انتشار الاستعمار من استغلال الأراضي التي كانت مخصصة للمراعي الموسمية. أمام إستفحال الأزمة الاقتصادية وتضرر القبائل التي لا مورد رزق لها، خير عدد هام من المهاجرين الإستقرار في طرابلس والبحث عن مورد رزق جديد. وقدر عددهم بحوالي 6000 مهاجر، وقد كان هؤلاء يعيشون في ظروف طيبة نظرا لإشتغالهم في جني الحلفة. وساعدهم مدخول الحلفاء على إستقرار وضعيتهم المادية، فرفضوا العودة إلى البلاد التونسية. وإستقروا في مناطق مختلفة من طرابلس ونجدهم يتوزعون على النحو التالي:

حوالي 130 خيمة من المهادبة مستقرين في غريان و60 خيمة من أولاد يعقوب مقيمون بناحية نالوت و60 خيمة أيضا من جلاص وأولاد إدير متمركزين بالزاوية الغربية⁽¹⁾.

كانت أيضا الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية دافعا وراء هجرة عدد هام من الطرابلسيين نحو تونس، وذلك نتيجة وحشية السياسة الإيطالية التي أدت إلى تدهور الحياة العامة للسكان.

أمسكت إيطاليا بدواليب الإقتصاد الليبي خاصة بعد إنشاء "بنك روما" الذي أعتبر وسيلة للتغلغل الإقتصادي السلمي، وقد أشار أحد الباحثين إلى أن هذا البنك " أقام مصالح إقتصادية غير إقتصادية " الغرض منها توريث الليبيين في ديون كبيرة تمهد للسيطرة على ممتلكاتهم ومن ثمة على أراضيهم⁽²⁾.

إعتمد المستعمر على سياسة التفجير والتجوير والزج بالمواطنين في المعتقلات التي أقامها وكان لهذا الأسلوب أثاره الاجتماعية السيئة، والذي يهدف إلى تطبيق الهجرة القسرية وتهجير أكبر عدد ممكن من المواطنين الليبيين خارج وطنهم حتى تتمكن السلطات الإيطالية من الإنفراد بالبلاد⁽³⁾.

تعددت أيضا الأعمال الوحشية للإيطاليين في التعدي على شرف الليبيين، ونجد خير دليل على هذه السلوكيات في التقرير الذي أعده الصحفي الألماني (جوتبرج) خلال (أكتوبر -نوفمبر 1911)، حيث يقول ".....لم يخجل الجنود والضباط الإيطاليون من إنتهاك أعراض المواطنين بالقوة، وقد إستخدموا في ذلك السلاح لإجبار بعض الزوجات والفتيات البريئات لمواقعتهم بالقوة، نذكر على سبيل المثال الرائدة ماديا (MADIA) والنقيب كوميرساتو (COMIRSATO) والنقيب ALLISI"⁽⁴⁾.

لم يبق للسكان جراء هذه الممارسات وأمام إنعدام الأفق سوى إختيار طريق الهجرة هروبا بالنفس وحماية للدين والشرف وكانت وجهتهم الأولى البلاد التونسية .

وبالعودة إلى إحصائيات الأرشيف التونسي بلغ عدد المهاجرين الطرابلسيين القادمين إلى مناطق الجنوب التونسي 1377 مهاجرا خلال الفترة الممتدة من(1911 إلى نهاية سنة 1913) ويتوزعون بصفة متفاوتة بين الجنوب الغربي والجنوب الشرقي :

موجة الهجرة الأولى (1911-1913)

¹ - André-Martel ، les confins saharo- Tripolitains...Op cit p 377

² - الحرير(إدريس صالح)، الاستعمار الاستيطاني في ليبيا ، مرجع سابق ، ص 147-148.

³ -الأرشيف الوطني التونسي، سلسلة A، صندوق 280، ملف 1.

⁴ - عزام(عبد الرحمان)، "كفاح الشعب الليبي في سبيل الحرية" مجلة الوثائق والمخطوطات، ترجمة د.عماد الدين غانم منشورات مركز جهاد الليبيين، طرابلس، السنة الأولى عدد1، 1986، ص50.

الجنوب الغربي		الجنوب الشرقي	
103	أم العرايس	251	جهة الأعراض
72	المتلوي	200	مدنين
100	المضيلة	186	تطاوين
201	الرديف	356	بن قردان
17	نفزاوة	884	المجموع
493	المجموع		

المصدر : - الأرشيف الوطني التونسي ، A ، صندوق 280، ملف 16. وثيقة 14-16-115-118-156.

إختار المهاجرون الطرابلسيون في البداية التمرکز في المنطقة الجنوبية الشرقية من تونس لقربها من حدود التونسية أملا في إنفراج الأزمة والعودة إلى موطنهم الأصلي، كما أن الزعماء الطرابلسيين إختاروا التمرکز بالقرب من الحدود الطرابلسية مثل سليمان الباروني، ليكونوا على إطلاع بتطور الأوضاع في طرابلس .

أمام هذا المصير الذي إختاره المهاجرين وهو الإحتماء بتونس هل فعلا سيمكثون بأمان أم ستكون للسلطة الإستعمارية الفرنسية موقف آخر؟

II. سياسة فرنسا تجاه المهاجرين

قبل دراسة السياسة الفرنسية تجاه المهاجرين من الجانبين الليبي والتونسي وجب التنويه هنا إلى أن فرنسا خلال فترة هذه الدراسة كانت تحت حكم الجمهورية الثالثة، وهي فترة عرفت فيها تقلبات داخلية اختلفت فيها الأحزاب اليمينية واليسارية اختلافا شديدا، ما أدى إلى عدم استقرار الوزارات الفرنسية حتى أن بعضها لم تستمر أكثر من عام وبعضها لم تعيش سوى عدة أسابيع .

و تعاقب على فرنسا خلال فترة دراستنا (1881 - 1915) مجموع 7 رؤساء وبسيطة الجمهوريين في الحكم بشعار فرنسا "إمبراطورية استعمارية" ⁽¹⁾.

¹ -Ernest -Lavissee, Histoire de France, libraire Armant colin, paris1953,p233

خرجت فرنسا بخسائر كبيرة بعد انهزامها ضد ألمانيا 1871، فكانت شديدة الحرص على استرجاع مكانتها بين الدول الأوروبية و تقوية دعائم إقتصادها الذي ستعول فيه على مستعمراتها لذلك ستكون سياستها تجاه هذه المستعمرات وتجاه العنصر البشري خاصة ممنهجة تخشى فيها الوقوع في أي خطأ من شأنه أن يقلب الرأي العام ضدها أو أن تدخل في مواجهة مباشرة مع بعض الدول. لذلك كانت القرارات السياسية تجاه ظاهرة الهجرة تعلن بعد مشاورات طويلة و مراسلات لوزارة الحرب ومناقشة الحكومة الفرنسية لهذه القرارات.

1. سياسة فرنسا تجاه المهاجرين التونسيين إلى ليبيا

لم تستطع فرنسا في البداية منع المهاجرين التونسيين من اجتياز الحدود نظرا لعدم تمكنها خلال تلك الفترة أي السنة الأولى من الإحتلال البلاد التونسية (1881) من إحكام سيطرتها على كامل البلاد، إضافة إلى أن منطقة الجنوب التونسي كانت دائمة العصيان الأمر الذي يتطلب تخطيطا ممنهجا ودراية كاملة بتلك المنطقة لإخضاعها، لذلك لم يجد تقدم المقاومين التونسيين نحو منطقة الجنوب والمنطقة الحدودية منعا من السلطة الفرنسية في البداية. ولكن سرعان ما أوجدت فرنسا طريقة للإنتقام من "المنشقين" كما نعتتهم وعولت على فصلها بطرابلس شارل فيرو (Ch. Féraud) ⁽¹⁾ الذي سيكون له دور كبير في ذلك. وبعد إمضاء معاهدة باردو شرعت فرنسا بتطبيق ما جاء في بنودها، وإستنادا إلى المادة السادسة من المعاهدة التي تقتضي بأن "نواب فرنسا الدولية والقنصلية بالبلدان الأجنبية يكلفون بحماية مصالح تونس ورعاياها..." وطلبت من وكيل الباي السابق الحاج بكار بإعداد قائمة إسمية في عدد التونسيين المقيمين في طرابلس وتعليقها على باب القنصلية الفرنسية والذين بلغ عددهم قرابة 5 آلاف تونسي ودعاهم إلى ترسيم أنفسهم كمحميين فرنسيين، فاستجاب اليهود أولا ثم بعض المسلمين ⁽²⁾. إلا أن العملية توقفت وتحرك الوالي عاصم باشا في سرية لوضع حد لما اعتبره شراء ذمة رعايا عثمانيين وإشتكى إلى لندن وباريس مؤكدا أن التونسيين هم رعايا عثمانيون وسيبقون كذلك.

إنتهجت فرنسا سياسة الضغط على المهاجرين لإعادتهم للتراب التونسي وكانت دائمة الحذر من دعم الأتراك للتونسيين، وقد صرح المقيم العام الفرنسي بتونس بول كامبون Paul Cambon ⁽³⁾ حول هذا التخوف بقوله "كانت الحكومة خائفة من ظلها ولم تكن ترغب حتى في مجرد الإقتراب من حدود ولاية طرابلس (...). أن لدي إقتناع جد عميق بضرورة التحرك بسرعة من هذه الناحية، دون المخاطرة بسبب ذلك بالاشتباك مع تركيا"، وأكدت ذلك وزارة الحرب في رسالتها إلى جيش الإحتلال بضرورة التحرك بأكبر قدر من الحذر من ناحية الحدود الطرابلسية. لذلك كانت فرنسا ترغب في إستسلام المنشقين وعودتهم دون حدوث مواجهات مع القوات التركية بعد تأكيدها على عدم وجود أي مصلحة لها في طرابلس. وجاءت هذه السياسة كتطبيق لمشروع الحكومة الفرنسية في المحافظة على العلاقات الودية (الفرنسية الأنقليزية) التي تجبر فرنسا بأن تبقى بعيدة على طرابلس لذلك تم إيقاف زحف القوات

¹ - شارل فيرو (1829-1888)، انطلقت مسيرته المهنية في الجزائر كمترجم وهو في عمر 19، تم تعيينه ضابطا سنة 1873 ثم رئيسا للجمعية التاريخية الجزائرية سنة 1876، و قسلا عاما لفرنسا في طرابلس سنة 1877.

² - André- MARTEL, les confins saharo- Tripolitains...Op cit, p 224

³ - بول كامبون (1843-1924)، دبلوماسي فرنسي، تولى منصب مقيم عام بتونس من 1882-1886.

النظامية الفرنسية لتتبع المهاجرين بقرار من هيئة الحكومة الفرنسية التي أعطت الأوامر في شهر ماي 1882 لطابوري جامي وفيلبار بالتوقف فوق واد فسي (1) .

وبعد أن نجح المهاجرون التونسيون في تنظيم عمليات حربية من داخل التراب الليبي، تمكنت فرنسا بفضل مخططات قنصلها فيرو من الدخول في مفاوضات مع المهاجرين وإغرائهم من أجل العودة خوفا من الخطر الذي أصبحوا يشكلونه وهم داخل طرابلس، وقد اعتبر أن الشخصية التي يجب كسبها هي علي بن خليفة(2) وفعلا فقد قبل بن خليفة التفاوض بعد عرضه جملة من الشروط ومن بينها منحه الأمان، ولكل المتمردين، ويدفع له مبلغا قدره 400 ألف فرنك كتعويض عن أملاكه التي أتلقت لم يتم في هذه الحالة الوصول لإتفاق مبدئي وتواصل الضغط من قبل القنصل فيرو حيث تقدم بطلب للحكومة الفرنسية من أجل دفع الباقي لإعلان مرسوم أمان في شهر أوت 1 من سنة 1882 الذي إستغله في إقناع المجموعات المتمردة .

سألت أحوال المهاجرين التونسيين وبدأ البؤس يعتصرهم في ظل غياب دعم الباب العالي ، كما عجلت جملة من الأحداث بدفعهم للعودة وكان أكثرها صدى وفاة علي بن خليفة عن سن ناهز أربعة وثمانين عاما يوم 14 نوفمبر 1884 في جهة يفرن، ومن هنا إنظمت عمليات العودة تدريجيا وتراوح قوامها بين 12000 و15000 مهاجرا في أواخر 1885 بإستثناء من إختاروا الإستقرار(3) .

وحق الذين قرروا الإستقرار لم يفلتوا من تتبعات فرنسا، فقد بلغ تأثير فيرو حتى باشا طرابلس من أجل إجباره على ترحيل مجموعة من المهاجرين قصرا من مكان إلى آخر بعد إن تعرضوا إلى الحجز في منطقة الزاوية الغربية ومنعوا من الاستقرار هناك وتم إرسالهم إلى طرابلس، هذا ما ذكره فيرو في رسالته التي بعث بها إلى وزير الخارجية الفرنسية يخبره فيها عن الإجراءات التي إتخذها نقيب باي والتي تدعي إلى إبعاد المنشقين بين الحدود التونسية الطرابلسية وقد بلغ عددهم حسب الوثيقة 29 رئيس خيمة[....] ".... هؤلاء العصاة قد أرسلوا إلى طرابلس تحت الحراسة ويجب إبقائهم في ضواحي المدينة ويطبقون خيامهم في الوقت الحالي في واحة" منليقا" ويجب عليهم المغادرة والخروج من الواحة"(4)

عملت الحكومة الفرنسية على إنتهاج هذه السياسة الرامية إلى إعادة المهاجرين التونسيين بشتى الطرق وذلك من أجل تجنب إثارة الرأي العام الدولي حول جرائمها الاستعمارية أولا والمحافظة على سلم أوروبا، ثم توطين المهاجرين في منطقة الجنوب وإستكمال السيطرة عليها، وكتمهيد من أجل إستعدادها لمشروع ترسيم الحدود مع طرابلس والتمكن من تمييز مجالها هذا من ناحية ثانية، إضافة إلى تخوفها من الوقوع في أي مواجهة مع الدولة العثمانية.

هكذا كانت فرنسا شديدة الحرص على إرجاع المهاجرين التونسيين والتي اعتبرتهم "رعايا فرنسيين" وجب إخضاعهم داخل مجالها و تحت رقابتها العسكرية، وقد تزامنت عودة التونسيين مع صعود جيل فيري على رأس مجلس الوزراء الفرنسي للمرة الثانية

1 - André- Martel, les confins saharo- Tripolitains...Op cit p.294

4 - المركز الليبي للمحفوظات والدراسات التاريخية ، قسم المخطوطات الأجنبية ، رسالة من القنصلية العامة لفرنسا إلى وزير الخارجية الفرنسية بتونس بتاريخ 17 سبتمبر 1896. وثيقة عدد 190.

(1883-1885) الذي يعتبر من أشد أنصار سياسة التوسع الامبريالي ، ويعتمد على مبدأ أن الشعوب الأولى تضطلع بدور تحضير وتأهيل الشعوب الثانية⁽¹⁾، فكانت حكومته تتعب خطوات المهاجرين أينما حلوا وحريصة على ارجاعهم جميعا. فكيف سيكون موقفها من موجات الهجرة المتتالية للطرابلسيين نحو تونس عقب الاحتلال الايطالي؟

2. سياسة فرنسا تجاه المهاجرين الليبيين عقب الاحتلال الايطالي.

لم يكن ترسيم الخط الحدودي (19 ماي 1910) بين الأجوار عائقا للحد من حركية السكان بين الجانبين لأن التداخل الإجتماعي و الإقتصادي للبلدين كان حافزا للقبائل لإنتهاك حرمة تلك الحدود في سبيل تحركاتهم .

وقد تمت هجرة الطرابلسيين إلى تونس عقب الاحتلال الإيطالي وفق موجات متتالية عرفت بحجمها العددي الهام وكانت نتيجة لجملة من الدوافع المختلفة وهي ضغط الاستعمار بدرجة أولى ثم إستفحال الأزمة الاقتصادية والإجتماعية، وما زاد في تدهور الأمور حادثة تخلي الدولة العثمانية عن إيالة طرابلس الذي اعتبر ضربة " قاسمة لظهر " الأهالي، حيث جاء هذا التخلي على إثر إمضاء إتفاقية الصلح مع إيطاليا بتاريخ 18 أكتوبر 1912 التي عرفت بمعاهدة أوشي -لوزان⁽²⁾. وبموجب هذه المعاهدة تركت الدولة العثمانية مصير طرابلس بأيدي أهاليها والذين لا حول لهم ولا قوة أمام ضغوطات المستعمر ما اضطر العديد من الأسر إلى تنظيم هجرة جماعية نحو تونس.

إمتدت موجة الهجرة الأولى من 1911 إلى نهاية 1913، وتزامن حدث الهجرة بعد اتأسيس شركة الفسفاط والسكك الحديدية (1897) بقفصه خلال انعقاد الجلسة العامة الثانية في باريس بتاريخ 3 أفريل 1897، و بعد وإستكمال كتشأف المناجم بجهة المتلوي(1899) والرديف(1903) وأم العريس(1904) و حاجة فرنسا لليد العاملة وبالتالي لم يتم في البداية مضايقة المهاجرين بل عملت على استغلالهم خدمة لمصالحها الخاصة . ويعود حرص فرنسا على التمسك بالمهاجرين كيد عاملة إلى حاجتها الماسة في تلك الفترة للمواد الأولية من مستعمراتها لإعادة بناء اقتصادها ، كما كانت تشكو أيضا من مشكل ديمغرافي ففي الوقت الذي كان فيه عدد سكان ايطاليا وروسيا وألمانيا في ازدياد كانت فرنسا تشكو من التناقص في عدد السكان بسبب الحروب التي إشتبكت فيها خلال القرن التاسع عشر ما دفعها إلى الاستعانة بالأيدي العاملة الأجنبية لتسد النقص في المجال الزراعي والصناعي⁽³⁾. لذلك كانت فرنسا غير قادرة على إرسال شبابها كعمال في مستعمراتها فكانت تحرص كل الحرص على استغلال المهاجرين الطرابلسيين والجزائريين والمغاربة لتقوية اقتصاد تونس حتى ينعش اقتصادها.

وبالعودة إلى الوثائق الأرشيفية حول هجرة الطرابلسيين تبين أن أدفاق هامة من المهاجرين إستقروا بمنطقة المناجم(أم العرايس، المتلوي، المضيلة، الرديف) حيث بلغ عددهم 1096 مهاجرا في أواخر شهر أكتوبر سنة 1912.⁽⁴⁾ إنخرط المهاجرين في العمل بالمناجم وفرض عليهم واقع تاريخي جديد أرغموا على تقبله، وفي هذا الإطار حتم عليهم العمل داخل مجال محدود ومظلم وهو " الداموس"، وتكون بذلك السلطة الاستعمارية قد حددت تحركات الطرابلسيين عبر المجال الجغرافي المذكور .

¹ - Assemblée Nationale de la France, Jules Ferry, (28 Juillet 1885) les fondements de la politique coloniale.

² -Baduel (Pierre Robert),Etat territoires et terrain au Maghreb :Extrait de l'Afrique du Nord, édition du CNRS . Paris 1983.P85.

³ - البطريق (عبد الحميد)، التيارات السياسية المعاصرة 1815-1960، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت 1974، ط 1 ن ص 107.

⁴ - الأرشيف الوطني التونسي، السلسلة A، صندوق 280، ملف 16، وثيقة 14-115-118-156.

كان نظام العمل بالمناجم له خصوصيته في تحديد ساعات العمل التي تتراوح بين 10 أو 12 ساعة ولا شك إن العمال الطرابلسيين غير متدربين على هذا الإمتداد الزمني في فضاء ممتد تحت الأرض وبالتالي سيكون لهذا الواقع الجديد إنعكاساته على نمط العيش و من الطبيعي أنهم سيجدون صعوبة في إستعبابه والتعود عليه هذا ما أكد عليه "نور الدين الدقي" الذي إعتبر أن نظام العمل الجديد قد طرح العديد من المشاكل في الاندماج معه⁽¹⁾.

إضافة إلى كون العمل في المناجم صعب ومرهق فإنه لا يخلو من المخاطر، فقد عمدت شركة فسفاط قفصة والمضيلة إلى تكليف العمال الطرابلسية بتقنية التفجير مما جعل العمال عرضة لخطر المتفجعات "Boutefeu" وبالتالي هم عرضة للموت في كل حين. أما على مستوى خلاص الأجور كان لا يتم بالتساوي مع العمال الأوروبيين فأجر العامل الأهلي يساوي نصف أجر العامل الأوروبي .

استغلت أيضا السلطة الاستعمارية الطرابلسيين في ممارسة الأنشطة الفلاحية بجهة الأعراض ومنطقة نفزاوة وذلك لتوفر فرص العمل بالأراضي الفلاحية أو بالواحات.

وقد بلغ عدد المهاجرين الطرابلسيين حسب إحصائيات الوثائق الأرشيفية (501 مهاجرا بالأعراض و 857 بنفزاوة). إنتقل أيضا بعض المهاجرين للعمل في المناطق الداخلية بالبلاد التونسية في ضيعات المعمرين و تم إعتمادهم كعملة خماسة أو رابعة⁽²⁾ ولكن فرص الربح في هذا المجال كانت غير مضمونة وعادة ما يصل المهاجر مفلسا ويقترض من المالك دين نقدي بضمان العمل وفي حالة عدم التمكن من سد الدين لا يمكنه الخلاص من العمل ومالكه طالما أن القانون التونسي في ذاك الوقت يحمي مالك الأرض من الخماس في حالة عدم التمكن من خلاص دينه ، وكثيرا ما كان الموسم الفلاحي ينتهي بالديون ويصبح هنا العامل في وضع شبه عبودي.

ومع إندلاع الانتفاضات التونسية (انتفاضة الزلاج 7 نوفمبر 1911 وأحداث الترامواي 1912) تعرض المهاجرين الطرابلسيين إلى نفس مصير المقاومين التونسيين الذين شاركوهم التظاهر فألقت عليهم السلطة الاستعمارية الفرنسية القبض لمحاكمتهم ومنهم رحومة بن مبروك الطرابلسي، 41 سنة من منطقة الزاوية الغربية و حسن بن بالقاسم بن علي، 40 سنة من غدامس و مصطفى بن محمد بن الطيب 23 سنة من غدامس⁽³⁾.

قدمت إلى تونس موجة الهجرة الثانية للطرابلسيين أثناء الحرب العالمية الأولى التي امتدت من 1914-1918، وقد إعتبرت هذه الموجة أقل حدة من الأولى نظرا لتوفر إمكانيات التحرك داخل مجال إيالة طرابلس بسبب ضعف الحضور الإيطالي في دواخل البلاد بعد دخول إيطاليا في حرب إلى جانب الحلفاء وتركيز إهتمامها على المناطق الساحلية (طرابلس -زواة -الخمس). تركت فرنسا الحدود مكشوفة أمام المهاجرين شرط أن يسلموا أسلحتهم قبل الدخول للتراب التونسي على نحو ما حصل مع قبيلة "بن عسكر" التي عبرت الحدود إلى تونس في أواخر سنة 1914 وقدر عدد أفرادها ب 195 نسمة ومواشيهم بنحو 200

¹ - Dougui, Nourdin, Histoire d'une grande entreprise coloniale. Institut supérieure d'histoire du mouvement nationale. Université de Tunis 1997, p259.

² - الخماسة نسبة إلى العمال الذين يتحصلون على خمس المحصول كأجر لهم مقابل الأعمال التي يقومون بها من تهيئة وحراسة وسقي وجني للمحصول و. يكون مكان تواجدهم في الواحات ومناطق إنتاج الحبوب و المزارع الكبرى . يطلقون عليهم الرابعة في الوسط لأن نصيبهم هو ربع المحصول.

³ - شارل أندري جوليان، إفريقيا الشمالية تسير القوميات الإسلامية والسيادة الفرنسية ، ترجمة المنجي سليم وآخرين ، الدار التونسية للنشر ص90.

رأس من الضأن وخمسين جملا. وقد صادرت قوات الاستعمار الفرنسي منهم 23 بندقية كشرط لمنحهم الإذن بالإقامة في الأراضي التونسية⁽¹⁾. وقد ضبطت فرنسا خلال هذه الفترة الحرجة تنقلات المهاجرين بقوانين صارمة تفرض عليهم التنقل برخصة عبور حسب ما نص عليه قرار 15 أكتوبر 1913 عدد 5824، الذي يطالب المهاجرين سواء القادمين من طرابلس أو العائدين إليها الاستظهار بهذه الرخصة⁽²⁾.

وأول ما إندلعت انتفاضة الجنوب التونسي (انتفاضة الودارنة) سنة 1915 انظم إليها المهاجرين الطرابلسيين. وأمام الفوضى التي أصبحت سائدة في هذه المنطقة وما أصبح يمثلها هذا التحالف بين الطرابلسيين والتونسيين من خطر، قررت فرنسا "تحریم اجتياز الحدود التونسية على جميع الضباط القادمين من والداخلين إلى الأراضي الليبية وراقبت بكل ما في وسعها جميع قوافل البادية التي تعبر الحدود بين البلدين محتجرة تلك التي تجد بحوزتها أسلحة أو عتاد"⁽³⁾.

قام ضباط الشؤون الأهلية بوضع عدد من المهاجرين الطرابلسيين في معتقل في منطقة عين تزو قرب بلدة قبلي ومن بينهم عائلة خليفة بن عسكر⁽⁴⁾، وزادت وضعية المهاجرين صعوبة بعد أن تفشى وباء الجدري، حيث ذاقوا ذعرا بسبب ظروف الإقامة القاسية داخل المعتقل الذي حشدوا فيه مما جعلهم يقررون الفرار وقد بادر بهذا المقترح خليفة بن عسكر وفعلا فقد تمكن بن عسكر من الفرار رفقة عدد من رفاقه ولكن فور إعلام السلطة العسكرية بعملية الهروب قامت بسجن كامل عائلته⁽⁵⁾. ومن ناحية أخرى، صدرت الأوامر لرئيس مكتب قبلي للشؤون الأهلية ب مصادرة أملاك خليفة بن عسكر وأمتعته وحيواناته. واقترحت السلطة العسكرية إصدار حكم غياي بالسجن على بن عسكر لمدة ستة أشهر وبخطية مالية قدرها 500 فرنك⁽⁶⁾.

هكذا كانت السياسة الاستعمارية تجاه المهاجرين الطرابلسيين متراوحة بين التسامح معهم وتطويرهم من أجل استغلالهم خدمة لمصالحها الخاصة (يد عاملة في الأشغال الشاقة)، وبين القمع المتكرر في حالة الإحساس بخطر قدومهم (التحالف مع المقاومين التونسيين عند الإنتفاضات) .

3. أثر السياسة الإستعمارية الفرنسية في عملية توطين المهاجرين.

كان للاستعمار الأجنبي (الفرنسي - الإيطالي) الأثر البالغ في تأسيس نط حياة مغاير للمهاجرين خلافا لما كان سائدا من قبل، فالمهاجرين في البداية أرغموا على تغيير واقعهم بسبب مخلفات السياسة الإستعمارية (سياسة التهجير) التي نكلت بهم ودفعتهم إلى التخلي عن موطنهم وممتلكاتهم بحثا عن الأمان.

¹ - الحسنوي (حبيب وداعة)، "المقاومة العربية المشتركة في ليبيا وتونس ضد الاستعمارين الإيطالي و الفرنسي أثناء الحرب العالمية الأولى" روافد عدد 1998، 4، ص 166.

² - الأرشيف الوطني التونسي، سلسلة A، صندوق 280، ملف 9، وثيقة 84.

³ - رمون (جورج)، من داخل معسكرات الجهاد في ليبيا 1912، تعريب محمد عبد الكريم، ط 2، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، طرابلس، ليبيا، 1983، ص 151.

⁴ - ولد خليفة بن عسكر في مدينة نالوت سنة 1884، ينتمي إلى قبيلة العساكرة وترى في كنف أسرة ريفية تميزت بشخصيته منذ الصغر بقوة الإرادة والعزيمة .

⁵ - ليسير (فتح)، خليفة بن عسكر، بيوغرافيا قائد غامض، ط 1 مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، زغوان، تونس 1998، ص 113.

⁶ - أرشيف المركز الليبي للمحفوظات والدراسات التاريخية، قسم المخطوطات الأجنبية، وثيقة عدد 174، سنة 1915.

وفي مرحلة ثانية وجدوا أنفسهم مرغمين على تقبل الواقع الجديد الذي فرضه الإستعمار أيضا، ولكن لم يكن الأمر هين بل كانت له مخلفاته التي سنحاول دراستها من زاوية نظر أنثروبولوجية ونبين درجة تأقلم المهاجر ودرجة تحمله للعيش في بيئة جديدة ومدى التمكن من تجاوز الأزمات ومدى جاهزيته لتقبل الواقع الجديد وتحمل نتائجه .

يفسر إختيار المهاجرين التونسيين الإستقرار بطرابلس بدل الرجوع لموطنهم الأصلي رضاهم على الموطن الجديد الذي إعتبره بر أمان وخلص لهم من ضغط المستعمر الفرنسي، فكان أمر الإندماج سهلا لحصولهم على فضاء بديل متلائم وحاجيتهم الضرورية للعيش التي تساعد على الإستقرار (توفر مورد رزق -الاستقرار الأمني)، بحكم أن طرابلس مازالت في ذاك الوقت لم تخضع للإستعمار الإيطالي زد على ذلك تشابه الهويات بين تونس وطرابلس وامتداد الفضاء الجغرافي وعراقة علاقات الجوار الممتدة عبر التاريخ التي ساعدت على تأقلم المهاجرين الذين إختاروا الاستقرار.

أما المهاجرين الطرابلسيين بتونس فقد وجدوا صعوبة في البداية في التفاعل مع واقعهم الجديد الذي سطره لهم المستعمر الفرنسي، فكانوا دائمي الشعور بالإغتراب خاصة في مجال العمل بالمناجم وهو فضاء مغلق يحده الحرية فلم يتمكنوا من الإعتياد" فتنتج هذه الحالة التي هي ضرب من ضروب إغتراب الذات عن عدم قدرة الشخص على التكيف مع ما تفرزه القطاعات الكبرى من متغيرات وتبدلات" (1).

رغم قسوة الظروف إلا أن المهاجرين الطرابلسيين كانوا ملزمين على البقاء والعمل وتحمل جور المستعمر الفرنسي في ظل سيطرة الإيطاليين على ممتلكاتهم في موطنهم الأصلي .

عملت السلطة الفرنسية أيضا على توطين الطرابلسيين في أحياء سكنية مجاورة لأماكن عملهم، كانت مساكنهم متكونة من الخيام والأكواخ، وكثيرا ما كانت تحدث مناوشات بينهم وبين الجزائريين الذين يسكنون بالقرب منهم لكن منعزلين عنهم، فقد عمدت فرنسا إلى خلق نوع من التباعد السكاني المعزول كل حي على حدا مثل تلك التي بنتها شركة فسفاط قفصه "فلا يستطيع واحد من حي أن يدخل حي آخر خصوصا في الليل. ومن يفعل ذلك عد عدوا والقتل عندهم أبسط فعلة ترتكب منهم ضد بعضهم" (2).

إعتمدت فرنسا سياسة "فرق تسد" من أجل إحكام سيطرتها على المجال و فرض المراقبة الدائمة على المهاجرين الذين كانت ظروفهم الاجتماعية قاسية نظرا لغموض وضعيتهم القانونية فهم لاجئين تحت الحماية الفرنسية ولكنهم ليسوا فرنسيين .

أجبروا المهاجرين الطرابلسيين على تقبل هذا الواقع رغم قساوته ومحاوله إيجاد سبل التعايش السلمي والتفاعل مع السكان المحليين والانشغال لتأسيس حياة جديدة بدل التحسر على الماضي. وساعدهم على ذلك ضمان موارد عيشهم بالعمل في المناجم والضيعات الفلاحية و كذلك التشابه في بعض العادات والتقاليد مع التونسيين. ومن هنا بدأت بوادر الإنتفاخ والوحدة تظهر تدريجيا بين المهاجرين والسكان الأهليين .

حاولت السلطة الفرنسية ضرب وحدة المهاجرين الطرابلسيين والتونسيين من خلال إحكام المراقبة على المنطقة الحدودية وبث الإختلافات بين الزعماء و إستمالة بعضهم وتعويدهم على سلوكيات إستهلاكية جديدة ونمط عيش مغاير، إلا أنها لم تفلح في ذلك

¹ - ليسير (فتحي)، خليفة بن عسكر، بيوغرافيا قائد غامض ، ط1، مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، زغوان، تونس 1998، ص116.

² - الحداد (الطاهر)، العمال التونسيون وظهور الحركة النقابية ، ط1، دار صامد للنشر ، تونس 1997. ص 195.

فالإمداد الجغرافي والتاريخي وعراقلة علاقات الحوار حالت دون تحقيق هدف فرنسا إضافة إلى طبيعة العيش القبائلي للمهاجرين الطرابلسيين التي يصعب تفكيكها وتغير مناهجها قسرا .

وتدرجيا تمكن المهاجرين من الإنتفاح على المجتمع التونسي ومقاسمته معاناته، إضافة إلى المشاركة جنبا إلى جنب في المعارك مع المقاومين لمواجهة المستعمر الفرنسي مثل ما حدث في انتفاضة الجنوب التونسي سنة 1915 وما بينته من وحدة بين الشعبين، وقد تتطور الأمر إلى بناء علاقات إجتماعية جديدة وصلت حد المصاهرة بين الطرابلسيين والتونسيين والتي ستتدعم أكثر في الفترات التاريخية اللاحقة.

خاتمة

أكدت الدراسات والبحوث على دور الهجرة المتبادلة في تعزيز الترابط التاريخي عبر العصور بين تونس وليبيا. وكانت هذه الظاهرة رهينة تفاعل جملة من العوامل التي دفعت السكان إلى مغادرة موطنهم الأصلي والانتقال إلى البلد المجاور سواء عن طوعية أو قسرا . وقد تكاثفت الهجرة القسرية المتبادلة بين البلدين زمن الإستعمار الأجنبي بطرفيه الإيطالي والفرنسي هروبا من الإضطهاد السياسي للمستعمر ومن تردي الأوضاع الاقتصادية والإجتماعية .

جاء قرار هجرة التونسيين إلى ليبيا هربا من تنكيل المستعمر الفرنسي وأملا في دعم الدولة العثمانية، إلا أن فرنسا عملت ما بوسعها من أجل إعادتهم إلى تونس بإعتبارهم رعايا فرنسيين كما إتجه أيضا إلى تونس آلاف المهاجرين الليبيين عقب الاحتلال الإيطالي بعد أن إستحوذ المستعمر على ممتلكاتهم و تشريدتهم . أمام تكاثف الحركة السكانية من الجانين حاولت فرنسا تطويع هذه الظاهرة حسب ما تقتضيه مصالحها الخاصة .

ونستنتج هنا أن الحدث الإستعماري كان له الأثر البالغ في التأثير على حركة السكان وتهجيرهم من مواطنهم الأصلية والدفع بهم إلى تقبل واقع جديد بمقومات عيش مغايرة لما كانوا معتادين عليه، ثم استغلالهم القدر الممكن لتثبيت سياستها الاستعمارية .

قائمة المراجع

✓ المؤلفات العربية

- البطريق (عبد الحميد)، التيارات السياسية المعاصرة 1815-1960، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت 1974،
- الجابري (محمد صالح)، يوميات الجهاد الليبي في الصحافة التونسية 1911. ج1، الدار العربية للكتاب. - الجديدي (محمد)، مدخل لجغرافية السكان، منشورات المعهد الأعلى للتربية والتكوين المستمر، دار سراس، ط2، تونس، نوفمبر 1994.
- الحرير (إدريس صالح)، الاستعمار الاستيطاني في ليبيا 1911-1970، ط1، منشورات جامعة الفاتح، مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الايطالي، ليبيا 1984.

- الزايد (محمد رجب)، قبائل العرب في ليبيا، دار الكتاب العربي، طرابلس، ج1، 1968.
- شرف الدين (إنعام)، مدخل إلى تاريخ طرابلس الاجتماعي والاقتصادي، دراسة في المؤسسات المدنية التجارية 1711-1835، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، ط1-طرابلس 1998.
- ليسير (فتحي)، خليفة بن عسكر، بيوغرافيا قائد غامض، ط1 أن مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، زغوان، تونس 1998.

✓ الكتب المترجمة

- جوليان (شارل أندري)، تاريخ إفريقيا الشمالية من الفتح الإسلامي إلى 1830، تعريب محمد-المزالي والبشير سلامة، الدار التونسية للنشر 1985
- ريمون (جورج)، من داخل معسكرات الجهاد في ليبيا 1912، ت محمد عبد الكريم الوافي، ط2، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، طرابلس، ليبيا 1983.
- روسي (أتوري)، ليبيا منذ الفتح العربي حتى 1911، تعريب خليفة تليسي، دار الثقافة بيروت 1974.
- شارل فيرو، الحوليات الليبية، تعريب محمد عبد الكريم الوافي، المنشأة العامة للنشر والتوزيع طرابلس، 1975.

✓ المراجع الأجنبية

- André (M), les confins saharo- Tripolitains de la Tunis (1881-1911) Paris 1965
- Baduel (P- R), Etat territoires et terrain au Maghreb : Extrait de l'Afrique du Nord, édition du CNRS. Paris 1983.P85
- Dougui (N), Histoire d'une grande entreprise coloniale. Institut supérieure d'histoire du mouvement nationale. Université de Tunis 1997
- Ernest -Lavis, Histoire de France, librairie Armand colin, paris 1953.
- Assemblée Nationale de la France (28 Juillet 1885).

✓ المقالات

- الحسناوي (حبيب وداعة)، "المقاومة العربية المشتركة في ليبيا وتونس ضد الاستعمارين الإيطالي والفرنسي أثناء الحرب العالمية الأولى" مجلة روافد عدد 4، 1998.
- عزام (عبد الرحمان)، "كفاح الشعب الليبي في سبيل الحرية" مجلة الوثائق والمخطوطات، ترجمة د. عماد -الدين غانم منشورات مركز جهاد الليبيين، طرابلس، السنة الأولى عدد 1، 1998.

✓ الوثائق الأرشيفية

- أرشيف المركز الليبي للمحفوظات والدراسات التاريخية، قسم المخطوطات الأجنبية.

-الأرشيف الوطني التونسي، سلسلة A